الطين والصدى ...

قصة بقلم محمد حمودي

تحت ظلال شجرة التوت الوارفة التي امام الدار الطينية الحقيرة، يستطيع المرء ان يأخذ قسطا من الراحة عندما يشتد حر الشمس في الظهيرة ، حتى الثيران نفسها لاتستطيع وقتئذ ان تجر المحراث الا بصعوبة بالغة ، اذ تتباطأ منها الخطوات ، وتمتليء اجوافها بالهواء الساخن الذي يبخل به حزيران ، فلا يترك منه الا كمية قليلة يوزعها بمقدار .

وفي تلك اللحظة التي يجتمع فيها العرق ، والتعب ، وصعوبة التنفس معا ، تجتمع احلام « مسعود » ككل العاملين في حقل الفلاحة، لتتركز في جلسة هانئة تحت شجرة التوت ، حيث جرة الماء المبردة في الظل ، وحيث طعام الغداء الذي تكون قد فرغت منه زوجة وفية مشاركة لمتاعب هذا النهار الصيفي المضني الطويل ..

اوقف « مسعود » الثورين « باشا » و « مهران » عند طرف الحقل ، واخذ يحل النير عن الاعناق المرهقة ، ثم ساق الثورين امامه. فأخذ « باشا » يمشي بتؤدة وعظمة رافعا رأسه ، كأنه لايريد ان يعترف بان العمل نال منه منالا عظيما ، بينما كان « مهران » صورة بائسة حقا، يظهر فيها جهد العمل ، فهو يمشي تارة عن يمين الطريق واخرى عن الشمال ، يحث خطاه ليصل الى الظل بسرعة فيأخذ علفه ، وقسطه من الراحة ، ليسلم بعد ذلك عنقه الى النير مرة اخرى .

لكن « مسعود » كان على ثقة من ان خداع « مهران » لاحد له فهو يذكره دوما بذلك الثعلب الذي اصطاده يوما ، فتماوت بين يديه ، حتى آنس منه غفلة فاذا هو شيطان يعدو بسرعة البرق ليختفي بعيدا عن ناظريه . انه لايثق بتلك المسكنة التي يظهرها « مهران » وخاصة عندما يقترب من القسم المزروع من الحقل ، فيهجم بفتة على المحصولات فلا يدركه الا وقد صار بين ماضغيه رزمة كبيرة من شتلات « الذرة » أو « الباميا »، او « البندورة » ولا يعبأ بعد ذلك بضربات « المساس » الطويل ، على ظهره ، كأنه قد ارتدى جلد فيل .

اما « باشا » فقد استحق اسمه عن جدارة ، فهو جلد صبور على العمل ، قلما يظهر مشاكسة ، أثناء الفلاحة فلا يحيد عن الخط ، ولا يهجم على المزروعات ، ولم يكن « مهران » بالمقابل الا عنيدا ، يقف أثناء الفلاحة ويزيغ عن الخط ، وكثيرا مايقطع الحبل ليهجم على المزروعات بعد ان يتأكد من نوم الجميع عندما يتعالى غطيطهم تحت شجرة التوت ، ليصيب طعاما ، له مذاق اخر غير مذاق العلف الذي يقدم اليه ، فاتفق الجميع على تسميته باسم الخياط « مهران » اذ كان مخادعا يكذب على الفلاحين فيخل بالمواعيد التي يعينها لهم في انجاز خياطة ثيابهم، في مواسم نزولهم الى المدينة لشراء كسوة جديدة ، فيضطرون الى المبيت ليلة او ليلتين بانتظار انهاء خياطة الملابس ، غير آبه بتأخيرهم عن حقولهم واعمالهم ، فوجد مسعود ان من الافضل ان يضاعف له الرباط، فاشترى حبلا جديدا قويا بالاضافة الى الحبل الاخر الذي يربط به « مهران » الى جذع شجرة التوت فلا يستطيع هربا او فكاكا .

وبالرغم من ان « مسعود » قد استيقظ في ساعة مبكرة ، لانه رأى والده في المنام ، فهو لايشعر بالتعب كما كان يشعر به كل يوم ، الا انه كان يحس بانقباض خفي مما جعله ينصرف عن الفلاحة قبل موعده في كل يوم بقليل . ولقد اراد الا يجعل للحلم السيء الذي رآه أثرا يفسد عليه عمله ، ففنى اغنيات عديدة ، تذكر بها ايام الشباب التي بدأت توليه ظهرها ، ثم جرب وسائل اخرى : الاستماع الى طيور النهر البيض وهي تزعق فوق الشاطيء على مقربة من الحقل ، او مراقبة القسم المزروع من الارض الذي تبدو خضرته المبهجة فتانة في نهايتها عند القسم الاسمر الذي يفلحه الان ، ليهيئه لدورة زراعية قادمة ، او الاستماع الى اصوات الرعاة والملاحين على الشاطيء الثاني من النهر ، لم تستطع كل هذه الاشياء ان تزيل من نفسه اثر الحلم الذي رآه ، لقد رأى والده مرتديا اللباس نفسه الذي كان يلبسه في ايامه الاخيرة : ثوبه القطني ،والعصابة البيضاء على رأسه ، عكازه ، حذاءه المغبر بتراب الحقل ، كان آتيا من جهة الشمال ، فأراد ان يسأله عن الوسيلة التي استخدمها في عبور النهر الى الجزيرة الصغيرة ولكنه لم يجرؤ على السؤال ، ودهش ايضا عندما لم يحيه او يعرج على البيت ، بل قصد الحقل مباشرة ، فطاف به قسما قسما ، فسوى بعض الشتلات المائلة ،ثم وقف على الساقية ،فوقف مسعودامامه يريد ان يحتضنه ،ولم يكد يتحرك حتى فتح والده فمه وقال ببطء :

ـ كيف العمل يامسعود ؟

ولم ينتظر جواب مسعود فتكلم مستدركا :

ـ اياك ان تفرط في « العلف » فان المطر سينحبس هذا العام ايضا .

ثم استدار ومضى بعد هذه الكلمات القليلة . اراد مسعود ان يعود به ويقول له :

ـ لم تر الاولاد ، هيا الى البيت لنأكل ،سأقص عليك اخبار الخراف التي ولدت لي هذا العام . لكن الكلام استحال الى قطع حجارة صلبة ابت ان تخرج من جوفه .

انتبه مسعود الى ان عليه ان يضاعف يقظته عندما وصل القسم المزروع من الارض ، كيلا يقوم « مهران » بغارة خاطفة اثناء شرود فكره في استعادة حلم الليلة الماضية ، ولكن الدموع سالت من عينيه حين تذكر والده ، لقد جعل منه رجلا ، اذ علمه جميع مايحتاج اليه الفلاح الناضج من دربة وعناية بالحقل والمواشي ، فشعر بحنين غريب اليه ، لم يشعر به حتى عندما كان حيا ، لقد كان عطوفا رحيما به دوما، وها هو يرعاه ، ويسدي اليه النصائح وهو في عالمه الاخر ، الذي ليس فيه فلاحة او زراعة .

وان اسف لشيء فهو يأسف لان والده لم يشهد زواجه ، بل ولم يستطع ان يجعله يزور بيته ، وينال طعاما من صنع امرأته ولو كان ذلك في المنام.وان لم يؤثر هذا على النبوءة المحزنة التي اخبره بها : فالاموات يعلمون مثل هذه الاشياء لانهم ينتمون الى ذلك العالم الاخر الرهيب الذي يوجه شؤون هذا العالم الذي يعيش فيه الناس .

ولا مناص حينئذ من الاعتقاد بان الجفاف سيمتد عاما اخر ايضا، ويالللفاجعة اذن !! فالمواشي قد هلك معظمها في الاعوام التي مضت ،وهذا عام جديد ، يحمل في طياته نذيرا جديدا كله شؤم ومصائب تضاف الى ماسببته الاعوام السابقة .

وقد حزم امره على ان يتحلل من وعده لامين الشيخ الهرم ، صديق الاسرة القديم ، وصديق والده الاثير اذ وعده بكمية من العلف لتخليص مواشيه الهزيلة الجائعة من الموت الذي يختطف منها بين آونة واخرى نعجة او عجلا . فهو يحمد الله على ان جعل ارضه بقرب النهر فيجد دوما المرعى ، والعشب ، والا كان مثل الشيخ « امين » الذي ينتظر

رحمة السماء . غير انه لام الشيخ امين في سره ، فقد باع الفلاحون مواشيهم ولو بأسعار رخيصة فذلك خير من خسرانها بدون ثمن ، الا الشيخ امين الذي كان ذا عناد عجيب ، فهو يترك مواشيه تموت جوعا ، فلا يجرؤ احد من الشارين على سؤاله عن بيعها . فيطوف القرى يستجدي العلف ، وما اقل ماكان يجد الأيادي المعطاءة التي تخفف عنه بعض مصيبته .

لاح له البيت الطيني القديم ، عند طرف الحقل ، وظهر النهر من وراء ذلك عريضا جبارا ، كأنه يهزأ من سفن الملاحة الخشبية ، ومجاذيفهم السريعة الضربات ، وبدت له شجرة التوت الكبيرة كأنها منتهى حلمه وسعادته ، وضاعف من سروره ان شاهد زوجه واطفاله قد تجمعوا في ظلها كسرب من النحل ، ورأى رجلا عرف حالا انه الشيخ امين جاء ليأخذ منه موعدا حاسما لاخذ العلف ، فيجلب بعد ذلك الحمير اللازمة لعملية النقل .

حيا المجتمعين ، ثم اقترب من صديق والده القديم : كيف الحال ياعمي امين ؟

فرد الشيخ امين بألفاظ خرجت متعبة من فمه الادرد :

ـ كيف حال من غدا اخر العمر متسولا ؟؟

ـ فيك البركة يا عم .

ـ لقد ولى زمان البركة يابني .

ـ توكل على الله ياعم .

فقال الرجل الهرم باستسلام ظاهر :

ـ لا اله الا الله .

اراد مسعود ان يجد كلاما مناسبا ينهي به الى الرجل الكبير رغبته في الاحتفاظ بالعلف ، ولكن غلبه الحياء والارتباك ، فهو لم يعتد الرجوع عن وعوده فكيف ينكث مع هذا وعدا لرجل هو صديق والده الاثير . كان الشيخ امين قد جلس في الظل على لبد أسود فرشته له زوجة مسعود ، وقد احاط به اولاده ، يطلبون منه مزيدا من قصص الصيد ، وحيل الثعالب .

ـ سمعت ان العام القادم سيكون .. ممحلا .. ايضا . ياعمي امين .

فعرف امين بخبرة الفلاح القديم ماتنطوي عليه هذه الكلمات .

ـ ذلك بيد الله يابني .. لايعرف الغيب الا الله .

لم يشأ مسعود انيظهر اهتماما بما قاله الرجل المسن ، وان فهم انه رد كلامه ردا لبقا ، فقال لاكبر اولاده ياسين :

ـ خذ الثيران الى شاطيء النهر .

فقال الشيخ امين :

ـ لم لاتعلفها هنا ؟!

ـ اننا نوفر بذلك بعض العلف ياعم .. فالشتاء لن يرحمنا غدا .

فرأى الفلاح المسن ان المسألة تزداد تعقيدا ، مع انه جاء لاخذ موعد لنقل العلف ، وكله يقين من ان ابن صديقه القديم اخر من يخيب له رجاء ، ولكن هاهي عراقيل جديدة تظهر في الطريق .. فوجد ان من الخير له ان يهجم على الموضوع مباشرة :

ـ متى تسمح باعطاء العلف يابني ؟.

فجفل مسعود عند سماعه هذه الكلمات ، ولكنه رأى ان من الافضل الا يراوغ الشيخ فهو مثله في الحاجة الى العلف .

ـ اخشى انني لااستطيع تلبية رغبتك في الوقت الحاضر ياعم ..

ـ ولكنك وعدتني .. يابن أخي ..

ـ لقد سمعت ان اكثر الفلاحين ادخروا العلف فهم يتوقعون عاما مجدبا اخر ..

ـ دعك من هراء الفلاحين .. أشاركوا الله في تدبير ملكه حتى علموا ان السماء لن تمطر ؟. هذا كفر يا ابن أخي ..

عرف مسعود ان الشيخ امين مصر اصرارا عجيبا على اخذ العلف وانه لم يقتنع بما سمع ..

ـ سأخبرك بعد ايام ان كنت أستطيع ان اعطيك بعض ماتحتاج اليه .

فجمع الشيخ امين مابقي فيه من قوة وعزم محاولا النهوض :

ـ قل انك لن تعطيني شيئا ..

ـ معاذ الله ياعم .. لم ارد ذلك .. ولكن الجود من الموجود كما تعرف .. والشتاء ..

ـ دعك من حكاية « الشتاء » هذه ، فانني اعرف ان الابواب كلها قد اغلقت في وجهي ..

اخذ الرجل الكبير بين يديه محاولا اعادته للقعود على اللبد ، واخذ حذره من ان ينزلق الى وعده بشيء سيكون هو غدا ـ ان استمر الجفاف ـ بأشد الحاجة اليه .

ـ ستتغدى معا وستتحدث بعد ذلك ..

ولم يكمل كلامه اذ انتصب امامه ابنه البكر وهو يلهث :

ـ ياأبي .. مهران ..!

ـ مابه ..؟؟

ـ في المغاصة ..

وقف مصعوقا عندما سمع الجملة الاخيرة ، فنادى يطلب حبلا ،اخذه بسرعة راكضا نحو شاطيء النهر ..

كان على طرف الشاطيء الذي يحاذي ارضه امكنة طينية يتركها النهر بعد الفيضان من كل ربيع ، فتشكل مغاصات تكون خطرا على الحيوانات التي تقترب منها ، اذ يكفي بعضها لان يبتلع جملا دون ان تترك له أثرا .

كان « مهران » قد غاصت منه القوائم في الارض الطينية ،فاقترب مسعود ليختبر نوع المغاصة ، فوجدها خطرة ، ورأى ان الحيوان ينظر اليه كأنه يطلب منه نجدة عاجلة ، فنشر الحبل ورماه من بعد ، وبعد اخفاقه مرات نجح في جعل الانشوطة في عنق الثور الغائص .. ثم جذب

شعر

من منشورات دار الاداب

وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

الحبل بقوة مما جعل الثور يخور كأنه موشك على الاختناق ، فتوقف عن الشد ريثما يتنفس الثور ، ثم عاود الشد مرة اخرى ، فأخذ الثور يجذب الحبل برأسه لما يسببه له من الم .

كان يغوص رويدا رويدا .. ولم ينفع عمل مسعود ، فتراخت يده حتى سقط الحبل منها .. فأخذ الثور يخور بقوة .. فرددت الجبال المجاورة للنهر صدى الخوار .. اليائس من الخلاص ، والمتمسك بالحياة، وشعر مسعود بانه يغوص أنملة انملة مع الثور .. حتى هم بان يقفز اليه في وسط المغاصة لينقذه ، ولكنه يعلم بان المغاصة لن يضرها ان تستضيف قادما اخر ..

لم يكن الحيوان المسكين ليعلم بالقوة الشيطانية اللزجة التي تحيط به ، وتجره الى الاعماق الباردة المظلمة فدار رأسه نحو الشاطيء ورمق صاحبه بعينين سوداوين جازعتين ، فشعر مسعود كأنهما مدينتان شقتا قلبه ، ولم يكن يعلم انه يكن له كل هذا الحب ، كالولد العاق يكره الوالد بدون ان تتغلغل الكراهية الى الاعماق حيث يظل الحب كجمرة بين طيات الرماد ..

بقي رأس الثور وحده فوق الطين ، بينما اختفى شعره الناري اللون تحت الطيات اللزجة ، وجعل المسكين يخور خوارا ضعيفا ..متقطعا فقد كانت كل حركة منه تجعل سبيله الى الاعماق اكثر سهولة .. ولم يتمالك مسعود نفسه من ان يبكي بحرقة عندما شاهد انف الثور اخر أجزائه غيابا في الاعماق الباردة .. جلس على الارض مكانه .. واخذ يبكي .. فجاءه صوت الشيخ امين :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. حسبك الله يابني ..

لم يكن الشيخ امين بحاجة الى شرح ، فقد شاهد الحبل الممتد على المغاصة ، والذي يدل بوضوح على المكان الذي اختفى فيه الثور الى الابد ..

كانت اسراب الطيور النهرية ناشطة في عملها على الشاطيء ،صاعدة مرتفعة مرة ، وهابطة نازلة مرة اخرى تلقف صغار السمك ، كأنها لم تشعر بالحياة التي انطفأت منذ قليل على الشاطيء الطيني .. وفي الطريق الى المنزل ، لم يكف الشيخ امين لحظة عن ترديد عبارات التعزية لمسعود حتى انه نسي في غمرة كلامه حزن الرجل فاندفع يحدثه عن حرقته لفقدان مواشيه ، وكيف يرى احدها وهو يتلوى امامه من الجوع ، وهو يموت ، فلا تطاوعه نفسه حتى على ذبحها للاستفادة من لحمها :

ـ انها مثل اولادنا تماما ، غير انها لاتملك النطق ..

وعندما أنهى مسعود الخبر الى زوجه وجد الشيخ امين ان المقام غير مناسب ، فقد شاء حظه الاسود ان يأتي مع المصيبة في وقت واحد.. الى هذا البيت .. فاستدار بخطاه الثقيلة دأبا على عكازه ليقصد السفينة .. ولم يكد يمشي بضع خطوات حتى فوجيء بصوت مسعود من ورائه :

ـ ياعم امين .. الى أين ؟!

ـ الى البيت يابني .. لقد قاربت الشمس المغيب ، ولن اصل الا متأخرا ..

ـ الا تريد علفا ؟

لم يستطع الشيخ ان يتكلم فظل واقفا .. صامتا ، فترة من الزمن، ثم استدار ليذهب ..

ـ تعال غدا وخذ ماتريد من العلف.. ستجد الاكياس معدة بانتظارك عند الشاطيء .. فلا تنس ان تكون هنا باكرا .

كان ياسين قد عاد في تلك اللحظة بالثور الاخر من مرعاه ، فظهر الثور وهو يتهادى فوق الكثيب مع انوار الشمس الغاربة ، كأنه ملك حقيقي ، لاتنقصه الرزانة والابهة والقوة ، ولم يكن يعلم بانه قد فقد صديقا حميما بالرغم من معايبه كلها ورفيقا كان يشاركه عبء حمل النير الثقيل .

حلب — محمد حمويه

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجي بيرانديلو

ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت